

حتى إذا ما أذنوا بتقدمه هبط الإمام وكان فوق المنبر
وتسابقوا طويلا له في مشهد والكل بين مهلل ومكبر
سجدا وقد نظروه شكرا للذي خلق العباد وخاب من لم يشكر

معنى البيت الأول تافه . رفيه جناس بين « حير »
و « أحر » . وفي البيت الثاني تلاعب بالألفاظ . فأذنوا بمعنى
أخبروا . وتكون من أذان المؤذن . والإمام هو إمام اليمن .
وقد يكون بمعنى الشخص الذي يؤم الناس في صلاة . والمنبر
بمعنى المرش . ويكون بمعنى الكرسي المرتفع الذي بخطب عليه
الإمام في المسجد . والمعنى في حد ذاته تافه وهو أنهم ذلوا
وخضعوا . ولكن الساعات أتى به في سورة رابعة . وأراد أن
يقول في البيتين الأخيرين إن الأعداء قدموا طاعتهم فأصبح على
هذا المعنى ثوبا دينيا جمع بين التذكير والتهليل ، والشكر
والشكر لله وقال .

كاد إن يحبى أن يموت لرعبه طولاً تبسمه وحسن المنظر
وابن يحبى هو إمام اليمن ولم يوفق الشاعر في مجز
البيت إلى الجودة في التمييز عما يريد .

وقال

أم الجديدة آملا لما رأى غوث الالهيف بها وكهف العسر
جاء الحمى فروى بفضل وانثى يروى الحديث عن الربيع وجعفر
رويت يمدوى آل نحسن أرضهم حتى اكننت زهوا بثوب أخضر
فد قوم لم يزل من دأبهم خوض البحار وكل بر مقفر

وايس في هذه الأبيات من المعاني سوى مدح آل محسن
(آل عوف) بالجود والياس . وفي البيت الثاني جناس بين
« روى » بمعنى سقى ، و « روى » بمعنى أخبر . وقد بالغ كثيرا
في قوله « خوض البحار ... » فأوهم السامع أن المدوحين
يملكون الأساطيل القوية التي يجوبون بها البحار والمحيطات
شرقا وغربا . والحقيقة أنهم نقلوا قليلا من الجنود على ظهر بعض
السفن . وفي قوله « حتى اكننت زهوا بثوب أخضر » معنى
تداوله كثير من الشعراء . وقال

حرمت دني نجد حوافر خيلهم قدما وكم ذرعوا بها من سمهري
وسقوا الرماض بجردهم نثارهت وقدت بغير مديهم لم تقهر

السمر المصري في مائة عام :

محمود صفوت الساعاتي

للاستاذ محمد سيد كيلاني

— ٣ —

وقال :

طلبوا السلامة من سطاء وسالموا ملكا عليه عسيرم لم يمسر
وقد استقالوا عثرة الحمن الذي زلت به قدم الضرير البصر
وتزاحوا حول البساط لينظروا حرم الوفود وكعبة المستغفر
معنى البيت الأول جيد . وفي كلمة « عسير » تورية فهي
اسم للبلاد الواقعة بين اليمن والحجاز . وتكون بمعنى الصعب
من الأمور . ومعنى البيت الثاني جيد كذلك . وفي مجز البيت
طباق بين « ضرير » و « مبصر » .

ومعنى البيت الثالث رائم لما أسيغ عليه من جو دني .

وقال :

حتى إذا ثبتت بهم أقدامهم نكسوا الرؤوس لئى المقام الأكبر
زهو جيد المعنى . وفيه طباق بين « أقدام » و « رؤوس »
وقال .

نظروا إلى ملك لديه كل ذى ملك كبير كالأنقل الأصغر
والمعنى تافه . وقال

ولو ان من قاد الجيوش إليهم غير ابن عون ماد غير مظفر
إن كنت تجهل فله قائل به من شئته من أبيض أو أسمر
وسل الحجاز وأرض نجد والحما عن دحاها بالخيل الضمر
ومعنى هذه الأبيات وجيز . ولكن الشاعر أطنب لأن
المقام اقتضى ذلك . وبارة « قائل به » من ودى القول .
وكذلك « من شئته » .

وقال

ذلت له أسد الرضى من حير مذ أبتت منه بموت أحر

كرر في هذين البيتين بعض المعاني التي سبق أن مدحهم بها . وقد شعر بإفلاسه فلجأ كما دانه وعادة غيره من الشعراء الفاسين إلى التلاعب بالألفاظ . فترى طباقاً بين « حرت » و « زرع » وتورية في « الرياض » فهي عاصمة نجد . وقد تكون بمعنى الحدائق والبساتين . ولم تخل جبهة الشاعر من المعاني فقط ، بل خلت من الصور كذلك .

فقال في الأسات السابقة

رويت بجدوى آل عمن أرضهم حتى اكتست زهوا ثوباً أحضر
وقال في هذه الأبيات

وسقوا الرياض بجدوم بزاهرت ... الخ فلم يجد اسمه غير
صورة واحدة وهي السقي والزرع وقال

آلت زماحهم وقد خاضوا الوغى إن لم ترد صدر المدى لم تصدر
وسيقو فهم رأيت القراب عرماً إلا الرقاب ورأس كل غنم غنفر
فصلوا المالك عن نداء وأخبروا في أي قطر جوده لم يقطر
وليس في هذه الأبيات شيء جديد . بل هي تكرار لما
سبق من مدحهم بالبأس والجود . وفيها طباق بين « ترد »
و « تصدر » و جناس بين « صدر » بسكون الدال وبين « صدر »
بفتحها . وبين « قطار » بسكون الطاء و « قطار » بفتحها وقال
ماروضة ما ست حدائق زهرها طرباً ونبتها بالريم الزهر
غنى الحمام على قدود عصونها سحراً فأغنى عن سماع الزهر
يوماً بأحسن من مديح سنته فيهم بنظم قلأند لم تنثر
وهنا تكرار لصورة السقي والزرع . وفيها جناس بين
« غنى » و « أغنى » وطباق بين « نظم » و « نثر » وقد تجلت
براعة الشاعر في الانتقال من المدح إلى الفخر بشعره . فبعد أن
أشاد بجدو آل هون وسور الأقاليم التي غزوها وقد أصبحت جنة
تجري من تحتها الأنهار ، رجع فذكر أن مدحه يفوق تلك الجنة .

قال

فاذا شدت ورق الحمى ناديتها يا ووق في ورنى الغصون تسترى
وإذا رأيت الجومنى قد خلا وهمت بالترحال بيغى وأصغرى
لنى لقاموس المروض ونظامه أروى الفرائد عن صحاح الجوهرى
لا تعد لوا في الشعر كل معمم كالنور ذى القرنين بالاسكندر
ما كل من يمل القصيدة ناظم قد ينتمى للشعر من لم يشمر

لو كان فيهم شاعر لو قفت في ديوانه أدبا ولم أتكبر
لكنهم جهلوا به ثم أدهو ما قصرت عنه شيوخ زعشقر
في هذه الأبيات قدم الساعاني نفسه على من حوله من الشعراء
ورفع منزلته في الشعر على منزلتهم . وأطال وأطنب وناقش وجادل
دفاعاً عن هذه القضية . وقد أسرف في الزيادة بشعراء الحجاز
وبالغنى تحقيرهم . فشبهم بالثيران وشبه نفسه بالاسكندر . وأشار
إلى الفرق العظم بين الثور ذى القرنين واسكندر ذى القرنين .
وقال لو أنه وجد فيهم شاعراً يستحق هذا الأسم لأكرمه
وعظمه وأحله المنزلة اللائقة به ولكن هؤلاء الشعراء الذين
يتاصفون بمداه يجهلون الشعر كل الجهل . ومع هذا فهم مدعون
بنسبهم لأنفسهم ما قصر عنه شيوخ البلاغة .

وقال

حجوا ولكن بيت كل قصيدة وسهوا ولكن في استراق منكر
وقد أنهمهم في هذا البيت بالسرقة من شعره والسطو على نظمه .
وأصبح على هذا جواً دينياً كما هي عادته في كثير من أبيات هذه
القصيدة . فذكر الحج والسمي . وعظم من شأن قصائده فجعل
كل بيت منها كعبة لهؤلاء الشعراء يحجون إليه ، ويسمون حوله
لسرقة ما فيه من المعاني .

وقال

وجبوهم لا لثائب غفلة لكن لحلم وطيب المنصر
يا آل محسن لم يزل إحسانكم يدع الدينى على حاكم يجترى
وفي هذين البيتين استطراد للمخلة المثيفة على هؤلاء الشعراء
وتحريض عليهم . وقد أجاد في هذا التحريض . فلم يجعل إحسان
آل عون إلى هؤلاء الشعراء من باب الغفلة وعدم الفهم ولكنه
من باب الحلم وطيب الأصل . وذكر أن هذا الإحسان قد جرى
كل حقير على قصد نوالهم والطمع في عطائهم . وهذه الأبيات
التي ساقها في الفخر بشعره وفي التحريض بنيره هي - دون شك -
من آثار الخصومة الهائلة التي نشأت بين الساعاني وبين شعراء
الحجاز .

٣ - في مصر :

يختلف شعر الساعاني في مصر عنه في الحجاز . فامتاز

قوله « كالك » فإنه من سقيم التراكيب الشعرية . وقوله « لأنك » أولى الناس بالمدح والمجد والملا « كلام خلو من الماني . وقد أحسن الرجل بضمفه في المدح فانتقل منه إلى التحدث عن مصر وخيراتها ونعيمها . قال :

لك الملك فاحكم كيف شئت على الترى إذا الأرض إلا مصر وهي ثراء
مبوا صدق وهي أنضروية مقام كريم حله كرماء
وذات قرار وهي خير مدينة وملاك عظيم أهله عطاء
والعنى ضيف إلى أبرد حد . ويتجلى هذا الضعف في قوله
« مقام كريم حله كرماء » وقوله « ملك عظيم أهله عطاء » فيها
خلوان من المعنى خلوا تاما . وقال :

على أنها من جنة الخلد غيضة رياض بها عين وأنت ضياء
وصدر البيت جيد المعنى . وعجزه تائه . والقصيد ككها ثلاثون
بيتا . ومع أنه نظمها في مدح اسماعيل إلا أنه استغرق أكثر من
نصفها في التحدث عن مصر وأرضها وسماها ورياضها وحقولها
وليس يبيد أن يكون هذا من أثر الأعوام التي قضاهما الساعى
في صحراء العرب . فوازن بين تلك القفار وبين مصر . فوجد أن
مصر هي أم الدنيا وهي قطعة من الجنة وجزء من الفردوس .
وقال :

فأبصرت فردوسا ندانت قطوفها ولكنيل فيها كوثر وشفاء
ومصر هي الدنيا جيمما وربها عزيز وأهلها هم النجباء
لقد جمعت ما بين شرق ومغرب كذلك بالفرقان جاء ثناء
خزائن أرض الله مصر وكم أنى حديث روت السادة القدماء
لقد سير الياى تراها وأهلها وروى ربها كيف شاء وشاءوا
وهكذا وصف الشاعر مصر . ومع أنه أسهب وأطال في
التنويه بمصر إلا أنه كرر الماني وردد الصور . فالصورة واحدة
في قوله « على أنها من جنة الخلد غيضة » وقوله « فأبصرت
فردوسا ندانت قطوفه » . على أن هذا الإسهاب والتكرار لم
يأت عبثا . وإنما هو نتيجة لما شاهده في صحراء العرب من جذب
ومحل ، وفقر وبؤس ، وبمد عن مظاهر الحضارة وال عمران .
فكبرت مصر في نظره وعظمت في عينه فأطرب في التنبي
بمخصوصية تربتها وعذوبة نيلها وما فيها من ثراء ورخاء وترف ونعيم .

محمد سبر كبريتي

« بنبع »

شمره في الحجاز كما أسأنا بإحتوائه على بعض المعتقدات الشيعية ،
وسيطرة الجرد الديني عليه ، والإشارة إلى المارك والوقائع ، تصوير
الأعداء وقد جاءوا طائمين مستسلمين . وقد ظهرت في هذا الشعر
آثار المداء الشديد الذي قام بين الساعى وشمره الحجاز . وقد
دفعه هذا المداء إلى الإكثار من مدح شمره ، والتفتى ببلاغة
نظمه ومثانة تراكيبه ، وقوة عباراته ، كما دفعه إلى التحقير من
شأن من حوله من الشعراء .

أما في مصر فقد كانت البيئة تختلف إختلافا كبيرا عن البيئة
الحجازية . لذلك بمدت الشقة بين مدائحهم في امرء مصر
ومدائحهم في آل هون .

كان الساعى إذا مدح حاكما مصريا خلع على مدحه ثوبا بلائم
المقام ومزجه بالإشارة إلى أهم الظاهر التي امتازها عصر المدوح .
فكان إذا مدح سميدا أشار إلى جيوشه وأسلحته وقلاع
وحصونه ، ونوه بياسه وقوته وشجاعته وإقدامه .

وإذا مدح اسماعيل تنفى بتراء مصر وخصوبة أرضها ومزايا
نيلها وأشاد بقصورها وبياتينها . وذكر أنها هي الدنيا التي
جمعت بين الشرق والغرب ، وحوث خزائن الأرض .

وإذا مدح توفيقا أشار إلى جوده وكرمه وعدله وحلمه
وما امتاز به من حن للتدبير وسداد الرأي وجودة التفكير .
ومن أمثلة هذه المدائح قصيدة مدح بها الخديو اسماعيل . وقد
بدأها بقوله :

لسمدك من فوق النجوم سما سماها سنا من نوره وسناه
كان في وسع الشاعر أن يأتي بمعنى هذا البيت وهو تائه في
عبارة جيدة وتراكيب سهل مستقيم . ولكنه حرص على أن يعلا
بيته بالجناس فجاء تعبيره سقيا تقيلا على الأذن . فهناك جناس
بين « سما » و « سما » وبين « سما » و « سنا » و « سناه »
وبين « سما » و « سناه » . كل هذا في بيت واحد . وليس
وراء هذا المعنى معنى قيم . وقال :

عليك لواء الحمد ظل مظلا علاه من النصر العزيز لواء
لأنك أولى الناس بالمدح والملا كما لك بالفضل الميم ولاء
والبيتان ضيفا المعنى والعبارة . فانتقل بقوله « ظللا مظلا »
وبدأ البيت الثاني بقوله « لأنك » وفي ذلك ضعف . وكذلك